## في الطريق الى السويس: خمسون عاما على العدوان (4)

# مهانة العرب حفزت كثيرين منهم على تأييد عبد الناصر الذي لم تكن لديه خطة تحرير او رغبة في مواجهة اسرائيل

# ناصر كان يكره الاخوان المسلمين.. واعتبرهم غير اسلاميين لكن تعذيبهم في السجون تم دون موافقته

سعيد ابو الريش*

**تنشر «القدس العربي» بمناسبة مرور خمسين عاما على ازمة السويس مقتطفات من كتاب الباحث الفلسطيني سعيد ابو الريش «ناصر: آخر العرب» الذي صدر بالانكليزية (2004) وترجم للعربية، خاصة الفصول المتعلقة بجذور ازمة السويس واندلاعها لعدوان ثلاثي، وتداعياتها.**

■ في داخل مصر، فان مناقشة الامور السياسية ومستقبل البلاد لم تتوقف ابدا. لقد كان الناس يتجادلون حول الديمقراطية (او حول غيابها) وكيف تعاملت الحكومة مع اعدائها السياسيين، وحالة الاقتصاد في البلاد. وقد اراد البعض ان يعود الجيش الى الثكنات، ولكن هؤلاء كانوا اعدادا صغيرة من المثقفين الذين لا يتمتعون الا بقليل من النفوذ السياسي. ان التهديد الوحيد للنظام قد جاء من المتماسكين والمحصنين. وهم الاخوان المسلمون. فقد تمكنت هذه الجماعة باستمرار من اختراق الجيش وجهاز الامن، وكانت لا تزال تفكر في استخدام نجيب كنقطة جذب لكل القوى المعادية لعبد الناصر. وكان كثير من الباشوات والرسميين في النظام القديم لا يزالون في السجن، ولكن البعض الاخر تم اطلاق سراحهم تدريجيا لانهم لم يمثلوا خطرا سياسيا. ولكن كانت هناك مشكلة في اطلاق عدة الاف من الاخوان المسلمين والشيوعيين. وبينما لم يكن عبد الناصر يعرف كيف يمكن ان يتعامل معهم، فان كثيرين منهم عانوا التعذيب، وكذلك عانى التعذيب بعض من اقاربهم الابرياء، بما في ذلك النساء.

ومن الواضح ان عبد الناصر كان موافقا على الاعتقالات غير الشرعية، ولكن هل تغاضى شخصيا عن استخدام التعذيب؟ هل كان نظام عبد الناصر الامني شبيها بالانظمة الاخرى في الشرق الاوسط، وهل اعتمد عليه لضمان السيطرة على المصريين؟ لقد كشفت تحقيقاتي عن هذا الموضوع ان ما حدث في مصر كان مختلفا تماما عما كان يمارس من قبل الدكتاتوريين في الشرق الاوسط. ان كل المعجبين بعبد الناصر، وحتى منتقديه من امثال هشام قاسم وشريف حتاتة ومحمد سيد احمد من ضمنهم، يعفونه من الامر بالتعذيب. لقد كان حتاتة وسيد احمد ناشطين قضيا سنوات في سجون عبد الناصر وتعرفا الى طريقة عمل الجهاز (الامني). اما هيكل ودسوقي وغالب ومحيي الدين وحمروش، فانهم جميعا ينفون ذلك، وببساطة لم يوافقوا على ان عبد الناصر قد علم او امر بالمعاملة الخاطئة للسجناء، ويفترضون انه علم بذلك في وقت متأخر فقط. وجميعهم متفق على ان هذا الامر لا يتالاءم مع شخصيته، فقد كان جوهريا ضد الاعمال غير الانسانية واي معاملة مخالفة لكرامة الناس.

ولكن التعذيب قد حدث. وكانت حالة من نتائج الدكتاتورية واستخدام الطرق الدكتاتورية حتى وان كان رئيس الدولة شعبيا بما فيه الكافية وليس بحاجة الى تلك الطرق. وكان عبد الناصر قد نال شعبية واسعة جدا بعد عام 1954، ولذلك لم يكن لديه سبب لاستخدام التعذيب، لكنه اكتشف لاحقا ان التعذيب قد استخدم من دون موافقته، وقد تم التعامل مع ذلك بشكل منفصل. لقد رعى عبد الناصر دون معرفة منه كثيرا من الجرائم، وخرق حقوق الانسان وكرامة الشعب. ولكن الجهاز الامني، شبه المستقل هو الذي كان خلف عمليات التعذيب. لقد تصرف الجهاز باسم عبد الناصر دون ان يبلغه ما كان يقوم به. وكانت لدى عبد الناصر كراهية مرعبة للاخوان المسلمين، حيث اعتقد بخطورتهم وضيق افقهم وفسادهم السياسي، وغالبا ما اعتقد انهم غير اسلاميين. ومع انهم كانوا شعبيين جدا، فان عبد الناصر سجنهم دون اللجوء الى الاجراءات القانونية المعمول بها، وكان التعذيب من دون علمه قد جاء طبيعيا.

### ابعد من السد العالي

اما في المجالين الاقتصادي والاجتماعي، فان الوضع كان مقلقا وغير واعد. فالنظام الذي له من العمر ثلاث سنوات، والذي يدعى برنامجه بـ «الاشتراكية الاسلامية» كان يحاول ان يضع ردا على الاخوان المسلمين. ولكن عبد الناصر ورفاقه لم يكن لديهم اي خطط جدية جديدة ابعد من المهمة الجبارة في بناء السد العالي في اسوان، وتطبيق قرارات اصلاح الاراضي، وصدور قوانين بالحد الادنى للاجور، والضرائب على الاغنياء. وبسبب سياساتها المعادية للرأسمالية، فان الحكومة المصرية، منذ البداية، واجهت مشاكل جدية في جذب الرأسمال الخارجي لتطوير بعض المؤسسات الاساسية، حتى بعد صدور القوانين التي سمحت بهيمنة عالية للشركات الغربية على الشركات المصرية. وفي الوقت نفسه، كان هناك تعارض بين الطبقة البرجوازية والحكومة الجديدة. لقد نظروا بعضهم الى بعض فقط بغياب كامل للثقة، بما حال دون التعاون. وكانت الاجراءات الاشتراكية او الشيوعية المتطرفة مثل الملكية الجماعية وملكية العمال غير مقبولة من عبد الناصر، اما البرجوازية القديمة والكتلة الصناعية (التي هيمن عليها بنك مصر) التي تملك معظم المصانع فقد عارضته ونصحت الشركات الاجنبية بعدم الثقة به، فكان من الصعب تحديد التوجه الاقتصادي. صحيح ان النظام الاقطاعي الرأسمالي الذي كان مسيرا للاقتصاد لم يعد موجودا، ولكن ما حل مكانه لم يكن اكثر من بيروقراطية شعبية يديرها ضباط وهي لا تزال منشغلة بتحديد هويتها. لقد استوعب عبد الناصر هذه الازمة في وقت مبكر جدا، وقد اثر ذلك الفهم في سياسته المستقبلية في التركيز على الصناعات الاساسية والاصرار على الملكية العامة للصناعات الاخرى.

ومع تهديد الركود الاقتصادي للنظام، فان انهاء خطط توفير التمويل وبدء العمل في السد العالي اصبحت مهمة جدا على الصعيدين السياسي والاقتصادي.

وكان عبد الناصر يفكر في دستور جديد لعام 1957، وكان انتخابه لرئاسة الجمهورية قد تقرر ان يكون في حزيران (يونيو) عام 1956، وفي الوقت نفسه كان هذا الامر سيؤسس البنيان شبه البرلماني، الاتحاد القومي ومجلس الامة. ولم تثر اي من هذه الحوادث التي جرى تحديد موعدها خيال الشعب الذي شب على عادة الاستماع عن «انجازات الثورة» بشكل يومي. وكان السد العالي هو الانجاز الرئيسي للثورة.

وحتى الحقوق الاجتماعية التي كانت قد منحت للشعب، كتأسيس جمعيات مهنية للمدرسين والطلاب والفلاحين والعمال وجمعيات اخرى فشلت في اثارة خيال الشعب. وكذلك لم يثر اهتمام الشعب تأسيس منظمة الشباب التي ضمت مئات الالاف من الاعضاء، ولا افتتاح المدارس التقنية والمهنية التي كانت الحاجة اليها في تزايد.

ولذلك، وكما قال كثيرون في ذلك الوقت (ويستمرون بالقول هذه الايام)، فان المشاكل الاقتصادية لمصر كانت ابعد عن الحل، وقد قيدت تطوير نظام سياسي قادر على التعبير عن سياسات الثورة، ومن ثم كانت السبب في ان اي رئيس دولة مصرية عليه ان يؤسس في مجالات اخرى ما يعوض من الانتصارات الداخلية.

وخلال القرن العشرين وتحت اي حاكم من كامها، حكانت مصر دائما تحاول ابعاد الانتباه عن مشاكلها الداخلية بان تأخذ على عاتقها دورا قياديا اقليميا في الجوار العربي والبلدان الاسلامية. فقد عمل ذلك الملك فؤاد والملك فاروق، ومن قبلهما الخديويون (وكذلك كان السادات ومبارك بعد عبد الناصر). وفي الحقيقة، فان مراهنة عبد الناصر على قيادة اقليمية مستندا الى القومية العربية كانت اكثر عمقا من بقية محاولات الاخرين، وكادت تنجح.

### استغراق في المشاكل العربية والاقليمية

وكان استغراق عبد الناصر في المسائل العربية الاقليمية عميقا ومتعمدا. فلأول مرة نص الدستور الجديد عام 1956 في مقدمته على وصف مصر بأنها «جزء من الامة العربية»، ولذلك فانه لم يتبع فقط خطوات الحكام السابقين، بمن فيهم رؤساء الوزارات المختلفة وقادة الاحزاب في الاربعينات. ولكنه اتجه بسهولة نحو تغيير شخصية البلاد وهويتها دون التفات الى احد. لقد اصبح عبد الناصر رئيسا لمصر عام 1956، وعرف عند المصريين والعرب جميعا في بقية حياته بالريس، بما يعني انه هو القائد والزعيم. وقد ادت الدعاية المصرية عملا ممتازا في تعزيز هذا المعنى.

ولذلك فانه في نهاية عام 1955، مع احتمالات التسريع في انجاز التنمية الاقتصادية وهزال التطور السياسي واجه عبد الناصر الغرب واستحق قيادة العالم العربي. لقد عرف كثيرا من التاريخ بما جعله يعتقد ان افكاره لن تعني اي شيء الا بالتصميم على العمل. وكان الماضي المصري المباشر حافلا بالكثير من الأمثلة لمحاولات فاشلة لتحدي الغرب، حتى ان مهانة فاروق في عام 1942 كانت جزءا من تلك الخرافة. ولذلك فان عبد الناصر لم يؤسس لنقاط جدال جديدة ليبرر توجهه الجديد، ولكنه بقي مع امور كان قبولها جاهزا. وقد ركز على حلف بغداد، وصفقة الاسلحة التشيكوسلوفاكية ودعم الثورة الجزائرية وتدريب وتسليح الفدائيين الفلسطينيين، وتأسيس امم غير منحازة ـ كتلة عدم الانحياز مع نهرو وتيتو، ومحاولة انهاء الهيمنة الغربية في بلدان عربية اخرى. ولان الولايات المتحدة عارضت صفقة الاسلحة والاعتراف بالصين الشعبية، فانها هي ايضا اصبحت معارضة لعبد الناصر. وما عدا تأييد الشعب العربي، فان عبد الناصر لم يحصل على دعم حتى من الاتحاد السوفييتي. وفي موسوعة من هو السوفييتية فانه وضع كعميل للامريكيين. اما الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا فكان عليها ان تقرر ما اذا كان عبد الناصر مجنونا او خطرا او كليهما معا. ووفقا لمحمد حسنين هيكل، فان ضعف مصر الموروث كان خلف عويل ايدن: «كيف يستطيع هو عمل ذلك، وكيف يمكنه؟».

وبتنحية العنف اليومي على طول خطوط وقف اطلاق النار مع اسرائيل جانبا، فقد كان اول اصطدام بعد تبني هذه السياسة المؤيدة للعرب من جانب عبد الناصر هو بينه وبين البريطانيين. فقد رأى ايدن حلف بغداد كامتداد للتأثير البريطاني في العالم العربي، وكانت بريطانيا مسيطرة على العرب والبلدان العربية النفطية الاخرى، وكان ضابط بريطاني يقود جيش ملك الاردن حسين. وقد ادرك عبد الناصر انه لم تكن هناك مشاكل بريطانية ـ مصرية لم تحل في ما يتعلق باتفاقية الانسحاب من السويس، والتي كانت تشمل السودان ايضا. وكان من المفترض ان يجري تنفيذها بالكامل في حزيران (يونيو) 1956. ولكن ايدن خرق الاتفاقية بينهما بحصره مجال العضوية في حلف بغداد التي كانت في الحقيقة مسألة اقليمية. وقد اعتبر عبد الناصر زيارة الجنرال تمبلر الى عمان والاتصالات البريطانية بالرئيس اللبناني كميل شمعون اشارات الى وجود مؤامرة تحاك ضده. اضافة الى ذلك، فان الصورة الشهيرة لايدن وعبد الناصر وهما يتصافحان اثناء المقابلة الوحيدة بينهما تحولت الى مجرد تظاهر وليست حقيقة. ووفقا لعبد الناصر، فان ايدن «تصرف مثل امير يتعامل مع متشردين». واكثر من ذلك، فان نوري السعيد في العراق، الصديق الرئيسي لايدن والحليف له في الشرق الاوسط، كان العدو رقم واحد لعبد الناصر والمنافس الرئيسي على القيادة العربية. والآن فان آلة عبد الناصر الاعلامية قد دعت الى تحطيم حلف بغداد.

### بريطانيا ونوري السعيد

وكان اكثر ما أخاف ايدن قد حدث. فقد نجحت رسائل عبد الناصر من «صوت العرب». وكان القائد العراقي المتغطرس وغير الشعبي قد جرى انقاذه من قبل البريطانيين في مناسبات عدة في الثلاثينيات والاربعينيات. ولكنه بدا قابلا للسقوط الآن. وقد اعتمدت السياسة البريطانية في الشرق الاوسط على نوري السعيد. فالاردن كان صغيرا وضعيفا، ولم يكن في مقدوره ان يقود، والعربية السعودية كانت منكفئة على الداخل وتنظر الى امريكا. وكان اشمئزاز عبد الناصر من الحلف تعبيرا حقيقيا عن معارضته للتحالفات مع الخارج. ان هجومه عليه كان بيانا قويا لسياسته، وقد تمثل في فضائح اذ ركز «صوت العرب» على ان نوري السعيد صبغته بريطانيا، وانه هو الذي امر الجيش العراقي بعدم مساعدة المصريين في حرب 1948، وانه شخصيا كان مدانا بالتخلص من المعارضين السياسيين في الثلاثينيات، كما ناقش «صوت العرب» موضوع تعامل نوري السعيد مع السياسيين العراقيين الذين تبنوا مواقف «نظيفة» ومعادية لحلف بغداد من امثال كامل الجادرجي ووفيق السامرائي. وهكذا كان دعم عبد الناصر للسياسيين العراقيين المثل الاول على اعتماد عبد الناصر على اناس داخل معسكر اعدائه.

وكان راديو بغداد واذاعة الشرق الادنى البريطانية يفتقران الى المادة ضد عبد الناصر. فليس في خلفية عبد الناصر ما هو حساس بما فيه الكفاية لادانته. فقد كانت حياته الخاصة والعامة نظيفة. وفي الحقيقة فان الامريكيين عندما حاولوا ان يرشوه بمبلغ يعادل الثلاثة ملايين دولار، فانه استخدم ذلك المبلغ لبناء برج الاذاعة، مما قوى بث اذاعة «صوت العرب». وكانت المعسكرات الكبيرة للسجناء بمثابة وصمات في نظامه، ولكن الاخوان المسلمين لم يبدوا تعاطفا معهم. وعلى نقيض القائد المصري، فان البريطانيين والعراقيين لم يكن لهم متعاطفون في المعسكر المعادي لهم. وقد حفز ذلك البريطانيين الى رفع العصا، وكان نوري السعيد داعما لهم بطواعية. وقد اقاموا اتصالات بالاخوان المسلمين بهدف الاطاحة به، وتآمروا مع الدكتاتور السوري اديب الشيشكلي لابعاد سورية من محيط تأثير عبد الناصر، وكلفوا الجنرال غازي الداغستاني، الشخصية المحترمة والمسؤول العراقي السابق لاركان الجيش وضباط الخدمة بأن يطور خططا احتياطية للاطاحة بالحكومة السورية وتأسيس حكومة مؤيدة لحلف بغداد في ذلك القطر.

وكانت رسائل عبد الناصر تلقى آذانا صاغية من المستمعين، ومئات من الاشخاص كانوا يتحولون الى مؤيدين لقضيته يوميا. وقد رد عبد الناصر على التحدي البريطاني بزيادة البث الاذاعي. وقد اتهم بريطانيا باستخدام اناس مثل نوري السعيد والملك حسين من الاردن وفقا لسياسة استعمار جديد، وبدأ بتجنيد جماعات صغيرة من المؤيدين، وهم في الغالب معارضون لكل الانظمة الموالية للغرب عبر العالم العربي. ولتعزيز الصلة مع اتباعه او المتعاطفين معه، استخدم عبد الناصر الملحقين الصحافيين في مختلف البلدان العربية. وكان ذلك تكتيكا غريبا هدف الى كسب قلوب العرب، وليس الى المساعدة في صناعة انقلابات ضد الحكومات. فلو كان يريد الاطاحة بالحكومات، فان الاكثر احتمالا هو ان يلجأ الى استدامة الصلات مع الجيش في البلدان المستهدفة. وكانت لدى بعض تلك البلدان حرية نسبية للصحافة، وكانت خطوة عبد الناصر الاولى في تأسيس قاعدة شعبية منظمة هناك هي رشوة رؤساء تحرير الصحف المحلية.

### رشوة المعارضة

واضافة الى رشوة رؤساء التحرير، فان الحكومة المصرية قامت برشوة المعارضين السياسيين، والعناصر المعادية للغرب، والمؤمنين بالوحدة العربية. لقد كان مئات من العراقيين والسوريين واللبنانيين والاردنيين والسياسيين الفلسطينيين على قائمة الرواتب. بعضهم كانوا صادقين في تأييدهم بينما كان الآخرون دجالين حشوا محافظهم ولم يفعلوا شيئا. ان المبالغ التي كانت مطلوبة للتنمية في مصر جرى توجيهها الى نشر افكار رسالة عبد الناصر في العروبة الى العالم العربي. ومع مرور الوقت بدأت حكومة عبد الناصر في التفكير في مستويات اكبر. فدعمت اشخاصا كانوا يتنافسون على المناصب، واحتضنت كثيرين منهم في القاهرة. ومما افزع الولايات المتحدة التي كانت تبذل اقصى جهدها للحفاظ على علاقات ودية معه ان سياساته في الاسترضاء والاحتواء عنت ان بعض الاشخاص الذين دفع لهم كانوا يساريين متشددين.

وبينما كان عبد الناصر يعارض بريطانيا واصدقاءها في المنطقة، لم يكن لديه مخطط بشأن ما سوف يفعله لو ان واحدا من هذه الاقطار اصبح تابعا له. لقد هاجم «صوت العرب» الاردن، والملك حسين بالضرورة، ولكن عبد الناصر لم يكن يريد اسقاط الملك حسين بسبب تخوفه من احتلال اسرائيلي للضفة الغربية. كما لم تكن لديه خطة لاستبدال نوري السعيد او تحويل سورية الى دولة تابعة له. ان الذي كان الاكثر اهمية في عقل عبد الناصر في اوائل عام 1956 هو السد العالي في اسوان والعرض الامريكي الاصلي. وقد قابل عبد الناصر رئيس البنك الدولي، وحصل على دعمه للمشروع. كما قابل ايضا رئيس الوزراء الفرنسي غي موليه لمناقشة دعم مصر للثورة الجزائرية. وقد جرى تحديد موعد لمقابلة مع وزير الخارجية البريطاني سلوين لويد في اذار (مارس).

وحتى بالنسبة الى خبراء الشرق الاوسط فان هناك بكل تأكيد تناقضا مقلقا في سلوك عبد الناصر. فهو من جهة الرجل الذي يقف خلف «صوت العرب» الذي كان يصف نوري السعيد بـ«الخائن» والملك حسين بـ«القزم» ويعيبه بـ«ابن المرأة». وكانت تلك الاوصاف استجابة شعبية للشعوب العربية ولمشاعرها، وبطريقة غير مشرفة تماما تستخدم لغة الشارع العربي. ومن جهة اخرى، فان عبد الناصر كان رجل الدولة الذي قابل مندوب ايزنهاور روبرت اندرسون، ويوجين بلاك من البنك الدولي وغي موليه من فرنسا وسلوين لويد من بريطانيا. ان هذا الانقسام المبالغ فيه في سلوك عبد الناصر كان نموذجا لكثير من القادة العرب في القرن العشرين. فقد كان ولا يزال انعكاسا لعلاقة الحب والكراهية بين العرب والغرب.

وبالنسبة الى بريطانيا على وجه الخصوص، فان القادة العرب كانت لديهم علاقة حب وكراهية نحوها. فقد ارادوا ان تصغي اليهم وان يعاملوا كأناس متساوين معها، وقد تحولوا دون سبب الى عاطفيين وسلبيين عندما لم يتحقق لهم ذلك. ولم يعتقد عبد الناصر ابدا ان البريطانيين سوف يصغون اليه الا اذا صرخ وركل، وفي هذه الحالة الا اذا قام مؤيدوه في البلدان العربية بتهديد السياسات والمصالح البريطانية. ولكنه ايضا كان يؤمن بالحس البريطاني باللعب النزيه. وقد كانت استجابة البريطانيين لهذه الطباع المزدوجة خاطئة ايضا. فبدلا من تأييدهم حوارا حقيقيا فانهم كانوا يتوقعون تبعية كاملة.

في الاول من آذار (مارس) 1956، وبينما كان يقابل وزير الخارجية البريطاني سلوين لويد، تلقى عبد الناصر اخبارا بان الملك حسين قد اقال الجنرال السير جون باغوت رئيس اركان الجيش الاردني. ولانه اعتقد خطأ ان لويد كان على علم بما كان يحدث، فان عبد الناصر هنأه على كبح جماح نفسه، وعدم عمل قضية من هذا الاجراء. وقد كان طرد غلوب مطلبا من قبل عبد الناصر، وبدا الملك حسين في ذلك الامر مستجيبا لارادة الشعب الاردني الذي كان مؤيدا لعبد الناصر. والواقع ان الملك حسين قام بذلك لان غلوب قلل من شأنه، ورفض ان يتعامل معه بشكل جدي. لقد كان غلوب ضيق الأفق ومتعاليا، وقد تصرف كما لو انه ملك الاردن غير المتوج. وكان الذي حدث هو ان عبد الناصر ولويد كانا في لقاء للتفاوض على وقف لحرب الكلمات. وفي اليوم التالي، عندما وصلت اخبار اقالة غلوب الى ايدن في النهاية، فان العلاقة بين البلدين انتهت الى القطيعة. وقد وجه ايدن اللوم الى عبد الناصر على نهاية غلوب، وهدد بتدميره. وحتى غلوب نفسه، بعد عودته الى لندن، اشار الى «ان بريطانيا تلاحق بالطرد من الشرق الاوسط بالكلمات».

وهكذا، فان اول توتر حصل بين مصر والمشارك الرئيسي في حرب السويس وقع في آذار (مارس) عام 1956 حول تطور اسعد عبد الناصر، ولكنه لم يكن من صنعه.

وقد جرت عدة محاولات لتصحيح الوضع، ولكن العداء المستفحل بين ايدن وعبد الناصر ساد. لكن ذلك كان على كل حال لا يزال بعيدا عن نهاية الخط بين البلدين، ذلك ان مصر وبريطانيا تعاملتا وفقا للضوابط الدبلوماسية حتى وقت لاحق من عام 1956، عندما وفرت الظروف فرصة للحاقد ايدن للانضمام الى مؤامرة في محاولة لخلع عبد الناصر.

وقد كانت حرب السويس نتيجة تلاقي مصالح اسرائيل وفرنسا وبريطانيا ضد عبد الناصر. ولم يكن لدى اي من القوى المتآمرة بمفردها سبب يكفي لبدء الحرب على مصر، ولكنها دمجت اسبابها معا لتبرير الحرب. وكما سنرى، فان الحرب كانت من صنع لجنة عملت في سرية وسرعة. وقد واجهت الخطة مشاكل نتيجة لعدم وجود اتفاقية معلنة حول ما ينبغي عمله تجاه عبد الناصر، فلقد كانت مؤامرة، وفي ذلك كانت نقاط ضعفها.

ان عبد الناصر الذي لم يتوقف عن هجومه الكلامي على المصالح البريطانية وعملائها بدا كما لو انه كان معجبا بالاتحاد السوفييتي. وتلك هي الكيفية التي نظر بها الى الامور من قبل ايدن ونوري والملك حسين. ولكن ذلك لم يكن حقيقة. فقد كان موقف عبد الناصر من الشيوعية لا يزال كما كان عليه عندما كتب حقيقة الشيوعية، ولم يكن للكتلة الشيوعية تأثير في عبد الناصر. فقد خدمت صفقة السلاح اهداف عبد الناصر والاتحاد السوفييتي في هز توازن الوجود الغربي بالشرق الاوسط، ولم يكن هناك شيء آخر ابعد من ذلك، باستثناء الزيارات الرسمية التي اثمرت قليلا في الجوهر. فلم يكن وجود الحزب الشيوعي في مصر غير قانوني فحسب، ولكن ببساطة فان عبد الناصر لم يكن يرغب في توسيع العلاقة مع الاتحاد السوفييتي. وفي الجانب الايديولوجي، فقد كان على استعداد لان يستعير من النموذج الشيوعي دون ان ينسخه. وقد قام بتغيير كل الافكار التي لاقت قبولا منه حتى تكون ملائمة للظروف في مصر والعالم العربي.

### المواجهة مع اسرائيل

ان المواجهة بين عبد الناصر واسرائيل التي تصاعدت في ازمة السويس عام 1956 كانت لها جذورها في قضية لافون. فليس فقط ان بن غوريون والمتشددين قد تخلصوا من شاريت، وخنقوا التحرك باتجاه استهلال السلام، بل هم باشروا سياسة انتقامية قوية. ففي آب (اغسطس) عام 1955، قام الجيش الاسرائيلي بقصف مجموعة من المواقع المصرية في قطاع غزة، وبعد عشرة ايام قتلوا واحدا وثلاثين شخصا في مدينة خان يونس، كما شنت اسرائيل هجوما مرة اخرى وبسرعة بعد ان قام عبد الناصر، من جانب واحد، في 20 ايلول (سبتمبر) بتجريد الحدود من السلاح. وفي اذار (مارس) عام 1956، اتبع ذلك بأربعة اعتداءات رئيسية ضد مصر، وآخر عنيف جدا ضد سورية. وفي نيسان (ابريل) 1956 فان مصر التي لم تكن قادرة على القيام بأي عمل عسكري مؤثر اعادت اطلاق جملة جديدة من العمليات الفدائية، وفي هذا الوقت فانها كانت ناجحة نسبيا، وطبيعي ان الرد الاسرائيلي كان مبالغا فيه.

وكالعادة، فان الاعتداءات الاسرائيلية ضد البلدان العربية وحدت الشعب العربي. ففي هذه الحالة، فان مهانة العرب حفزت كثيرين منهم على تأييد عبد الناصر بشخصيته العربية المحببة، فلم يعد هناك شخص آخر على المسرح العربي. ولكن كان هناك كثير مما سوف يحدث بين مصر واسرائيل غير القصف العسكري وتسلل الفدائيين. فان بن غوريون، مهندس سياسة الانتقام الواسع، كان ضمن المؤسسين الاساسيين لاسرائيل الذين رفضوا تعريف حدود الدولة اليهودية. وقد عنى ذلك ضمنا ان اسرائيل تحتفظ لنفسها بخيارات مفتوحة للحصول على اكثر مما لديها من الاراضي العربية. ولان قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء لم يكونا ابدا جزءا من الخطط التوسعية لاسرائيل، فان احتلال اراضي الضفة الغربية والاردن او سورية، او هذه جميعا كان اكثر احتمالا، وقد اخذ عبد الناصر على عاتقه دور المدافع عن الاردن وسورية.

الا ان قيام اسرائيل باحتلال معظم الاماكن المقدسة في القدس ومصادر المياه ارغم مصر على الوفاء بشروط المعاهدة بمساعدة البلدان العربية الاخرى. لقد اعاد التزام عبد الناصر بهويته العربية تأكيد التزام مصر. وهذا هو ما جعل انشغال بن غوريون بالبلد العربي الكبير شاملا الى هذا الحد. وقد وجد بن غوريون في مصر ممثلا لجماهير عربية موحدة، وقيادة للعرب باتجاه وضع طوق حول عنق اسرائيل. وقد ابلغ شاريت الكاتب كينيت لوف ان رفيقه السابق اراد حربا مع مصر لكي تقف في وجه التعاون والتنسيق العسكري العربيين. وكان السبب الثالث لرغبة اسرائيل في انهاء حكم عبد الناصر هو سطوع نجمه في الساحة الدولية. ومع ان اصدقاءه جاؤوا من بلدان لم تكن مؤيدة ابدا لاسرائيل ـ يوغوسلافيا والهند واندونيسيا ـ فان مؤتمر باندونغ وما تبعه من انجازات قد خلقا منه شخصية عالمية، وهو امر وجدت اسرائيل فيه، واقعيا او غير ذلك، تهديدا جديا.

وفي وقت مبكر من عام 1956 تيقظت الولايات المتحدة اخيرا على الاحتمال الخطير باندلاع صراع مصري ـ اسرائيل وبادرت الى اطلاق مشروع ألفا، وهو المشروع السري الذي كان يؤيده الرئيس ايزنهاور. وقد اختير صديقه روبرت اندرسون الذي اصبح في ما بعد وزيرا للخزانة للتوسط بين بن غوريون وعبد الناصر. وكانت هذه المحاولة لا تزال وليدة وغير مؤهلة لتحقيق السلام. وقد فشل التكاسي الماكر المليونير اندرسون في ان يثير اعجاب اي من الطرفين، واغضب عبد الناصر من خلال ربطه بين المساعدة في بناء السد العالي في اسوان والقبول بحل المشكلة الفلسطينية. وقد اعتقد المتآمر على عبد الناصر انه كان يجري ابتزازه، وبشكل خاص عندما حلت مجموعة وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية في القاهرة محل اندرسون، وتولت امر ألفا.

ولم يكن عبد الناصر مسؤولا عن زيادة التوتر بين اسرائيل ومصر. فقد كانت اسرائيل مزهوة بتفوق جيشها، ولم يظهر بن غوريون اية ميول باتجاه الاعتدال. وكان اعطاء الفدائيين حرية الحركة واعادة تأكيد الالتزام تجاه سورية والاردن هو كل ما يستطيع عبد الناصر فعله. وبتراجع عن إبائه، ارسل قائمة مخفضة بحاجة مصر من السلاح الى سفير الولايات المتحدة هنري بايرود، ولم يتلق جوابا. وفي الوقت نفسه، كان الضغط العربي كبيرا عليه لاستخدام جيشه للرد على اسرائيل الى درجة اقتربت من تهديد دعواه في القيادة العربية. وكان لا يزال رافضا لارسال الجيش الى هزيمة مؤكدة، وقد اعترف بانه لا توجد لديه خطة لتحرير فلسطين. ووفقا لبايرود، فان عبد الناصر لم تكن لديه رغبة في قتال اسرائيل. وقد بدأ جيشه في تسلم بعض الاسلحة من صفقة الـ330 مليون دولار مع تشيكوسلوفاكيا في بداية عام 1956، ولكن جيشه بشكل عام كان ضعيفا في المعدات ومفتقرا الى التدريب، وكان عبد الناصر على علم بذلك. وعلى كل حال، كانت اسرائيل تتسلم بانتظام اسلحة من فرنسا وبرعت في استخدامها، وكان جيشها افضل تدريبا وقيادة.

متظاهرون مصريون اثناء ازمة السويس 1956

* كاتب وصحافي فلسطيني يقيم في فرنسا